الباب الثالث

تطوير منهج الخطاب الديني

تمهيد للباب

● نتخذ المعنى المشروع للمنهج من لغة القرآن الكريم. وقد ورد لفظ «منهاج» مرة واحدة في قوله تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة:٤٨) وقال القرطبي رحمه الله في تفسيره للآية : «والشِّرْعة والشريعة الطريقة الظاهرة التي يُتوصل بها إلى النجاة . والشريعة في اللغة : الطريق الذي يُتوصل منه إلى الماء . . . والمنهاج الطريق المستمر ، وهو النهج والمنهج ، أي البيِّن». وقد رُوي عن ابن عباس والحسن وغيرهما : «شرعةً ومنهاجاً سُنَّةً وسبيلاً»[1] .

فالمنهج ـ على هذا ـ هو الطريق الواضح البين المستمر ، الذي يجب أن يسير فيه الداعية إلى الله لكي يستطيع استمالة العصاة من المسلمين إلى التوبة والعودة إلى طاعة الله ، أو إقناع غير المسلمين باعتناق الإسلام ، أو على الأقل الكف عن مهاجمته وعن إيذاء المسلمين .

ويجب على الداعية المسلم الذي يدعو إلى الله ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ (يوسف:١٠٨) أن يتبيَّن معالم هذا الطريق ، ليسدد خطواته بحسب قواعد السير فيه وآداب التعامل مع من يلقونه من السائرين . وبغير التزام هذه الواجبات لا بد أن يلتبس عليه المسار ، وقد يلج في طرق أخرى متقاطعة معه ، تبعده عن غايته ، أو تؤخره عنها .

هذا الطريق البيِّن هو موضوع دراستنا في هذا الباب الثالث ، وهو جزء من «علم الدعوة» الذي نتمنى أن نسهم في بنائه ، لمواجهة تحديات «تطوير الخطاب الديني» . ولسوف نجد أن عنوانات الفصول الرئيسة لهذا المبحث موجودة في الكتاب والسنة ، وهي من السعة بحيث يمكن أن تستوعب التطورات الحديثة دون تعسف في التفسير أو التأويل .

* * *

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ؛ تفسير الآية ؛ جـ ٣ ص ٢٢٠٨ .

الفصل الرابع عشر

الدعوة بالحكمة

وجوب الدعوة بالحكمة

● الحكمة خاصية أساسية واجبة الاتباع في الخطاب الديني ، لأنها تستند إلى قول الله تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل:١٢٥). وبعد الحكمة تأتي الموعظة الحسنة ، ثم الجدال بالتي هي أحسن ، كما تنص الآية الكريمة .

ولا يُفهم من هذا أن الحكمة لا تقبل التطوير ، ومن ثم يكون المنهج الدعوي مثلها . فالآية الكريمة قطعية الثبوت ، مثل جميع آيات القرآن الكريم ، لكنها ظنية الدلالة ، أي تقبل التفسير على أكثر من نحو . وهذه «الظنية» هي التي تتيح لنا تطوير المنهج الدعوي وتطوير خاصية الحكمة الأساسية فيه ، كما سنبين فيما يلي.

وفي تفسير القرطبي أن هذه الآية : «نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش ، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين ، دون مخاشنة وتعنيف . وهكذا ينبغي أن يُوعظ المسلمون إلى يوم القيامة . فهي محكمة في جهة العصاة من الموحِّدين ، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين . وقد قيل إن من أمكَنَتْ معه هذه الأحوال من الكفار ، ورُجِيَ إيمانه بها دون قتال ، فهي فيه محكمة ، والله أعلم»[1].

وعبارة «وقد قيل» التي أوردها القرطبي تشير إلى مجاهيل ، ومن ثم يجب أن نتوقف في قبولها . والقرطبي يصنف المخاطبين إلى موحِّدين وكفار ، ثم يصنف

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ؛ تفسير الآية .

الكفار إلى فئتين : الأولى تستجيب للدعوة بلين ، والأخرى لا تستجيب فتُقاتَل . ولا يسع الأمة المسلمة اليوم أن تقاتل الكفار الرافضين للإسلام ؛ فلا يبقى أمامنا إلا الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة . وبصَرْف النظر عن عجزنا ، يقول بعض الأصوليين «إن كل دليل شرعي يمكن أخْذه كلياً»[1] وعلى هذا يكون منهج الدعوة بالحكمة واجب الاتباع في أوساط الموحِّدين وغيرهم . والأمر بالقتال الذي تكرر وروده في القرآن الكريم يمكن أن يُخَصص بالكفار المحاربين ، لا المعاهدين والمسالمين ، والله تعالى يقول ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة:١٩٠) فالقتال واجب ضد المقاتلين .

والسؤال الآن هو : ما معنى الحكمة ؟

● ولن يفيدنا أن نرجع إلى المعاجم اللغوية لمعرفة معنى الحكمة . ولا يفيدنا الاستعانة بالمفاهيم الفلسفية للحكمة عند اليونان القدماء الذين اعتبروا الفلسفة هي محبة الحكمة ، وأن الحكمة فضيلة أخلاقية ، وليست مجرد حب للفلسفة . المصدر الأول لمفهوم الحكمة هو القرآن الكريم . وقد ورد لفظ «الحكمة» فيه عشرين مرة . ووردت الصفة «حكيم» سبعة وتسعين مرة ؛ وصيغة التفضيل «أحْكَم» مرة واحدة . فَلْنَنْظُرْ في معنى الحكمة في بعضها . قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ (لقمان:١٢) فالحكمة هنا هبة من الله لرجل صالح ، وهي نعمة تستوجب الشكر للواهب المنعم ﷻ . وقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (الجمعة:٢) و الحكمة هنا هي السُّنة ، لأن كل تعليم علَّمه النبي محمد ﷺ هو : إمَّا قرآن وإمَّا سُنَّة . والحق أن سنن النبي كلها حكمة ، بإجماع الأمة .

وقال تعالى ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (البقرة:٢٦٩) فالحكمة هنا هبة أو نعمة ، وهي خير كثير ، وتثمر خيراً كثيراً .

---

(١) الشاطبي ؛ الموافقات ؛ جـ٣ ص ٣٠ .

- وقد تكرر هذا المفهوم للحكمة في الآيات الأخرى ، فنكتفي بهذه الآيات الثلاث .

● ومن هذه الآيات فهمنا أن الحكمة موهبة فطرية يؤتيها الله تعالى لمن يشاء من عباده .

● وكل مواهب الإنسان الفطرية يمكن إضعافها بالتربية السيئة ، ويمكن صقلها وتنميتها بالتربية الجيدة ، والممارسة الدائمة .

● وفي آية سورة الجمعة جاءت الحكمة بمعنى السُّنة النبوية المطهرة . واقتران الحكمة بالكتاب في آيات عديدة يشير إلى مكانة السُّنة التي تبين ما جاء في القرآن الكريم وتشرح عقائده وشرائعه وأخلاقياته .

● وقد تولَّى النبي ﷺ الدعوة للإسلام ، وأحاديثه الشريفة دعوة وبيان وشرح ، وتشريع . وفي السُّنة يتجسد المنهج الدعوي : بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن .

● والمواهب البشرية لا يكاد يُحرم منها إنسان . لكنها تتفاوت لدى الأفراد تفاوتاً شديداً . فالذي يجب أن نفهمه من الحكمة ـ كموهبة ونعمة ـ هو أنها موجودة لدى البشر ، ولكن مع فروق فردية عظيمة ، فاختص أصحاب الحكمة الموهوبين بقدر بارز منها ، بلقب «الحكماء» . وهؤلاء هم الذين يستطيعون فهم السُّنة ، وفيها منهج الدعوة ، وتنمية موهبة الحكمة بالتحصيل والدرس والممارسة ، ومن ثم يبرزون في تطوير منهج الدعوة ، لإتقانهم المنهج الدعوي الذي أمر الله تعالى به ، وجسَّده عمل الداعية الأول للإسلام محمد ﷺ .

- والحكمة خير كثير ، حسب وصْف القرآن الكريم . ولفظ « خير » يمكن أن يتسع لكل فكر سديد ، وكل عمل مفيد للدعوة . ومن هذا ندرك أن الحكمة تتسع للتطوير بما يناسب حال المدعوين اليوم وغداً وبعد غد ، وبما يفتح المجال أمام الدعاة لاستخدام كل وسيلة ممكنة لنشر الدعوة . وهذا يتفق مع كون لفظ « حكمة » ظني الدلالة ، وكذلك لفظ « خير » .

● ومن البدهي أن الحكمة تتنافى مع الخطأ . وهذا يوجب على الداعية مراجعة المواد الدعوية ، وتصويب كل ما يمكن أن يكون فيها من أخطاء . ولو دفعها إلى ناقد متخصص لكان أفضل وأقرب إلى الحكمة . وفي هذا يقول الشافعي رحمه الله : « إذا رأيتم الكتاب فيه إلحاق وإصلاح فَاشْهدوا له بالصحة»[1]. لأن وجود إضافات وتصويبات يدل على المراجعة الفاحصة ، وينفي العجلة . ووجود نص مكتوب ـ ولو بدون تصويبات أو إضافات ـ خير من الارتجال ، ويلاحظ أن هذه القاعدة المنهجية لا تطبق هذه الأيام إلا فيما ندر .

● وفي الخطابة المنبرية هذه الأيام يسود الارتجال بغير تحضير مما يتنافى مع الحكمة ، ومرد ذلك إلى أن معظم الخطب معادة . فالخطيب لا يبحث ، ولا يكتب ولا يجدد . وفي المقالات الصحفية تسود السطحية ، ومقالات المناسبات السنوية . وفي الدراسات العليا يسود النقل عن كتب التراث ، دون إبداع ، إلا في النادر القليل . وهناك مجالات لا تزال خارج نطاق البحث العلمي ، منها مجال «الدعوة» الذي نعالجه هنا ، والمجالات السياسية والفنية .

احترام العقلية العلمية للمخاطبين

● بعد انتشار التعليم العلمي التجريبي في العالم الإسلامي حديثاً يتَوَجَّب على الدعاة أن يراعوا هذا الواقع فيما يقولون ويكتبون . فهذا هو مقتضى الحكمة . فالقصص التراثية عن المقامات والأحلام والرؤى ، والتهويل ، والإدهاش بقصص الأولياء وأهل الكرامات لم تعد تلقى التصديق الذي كانت تلقاه في الماضي ، ولم يعد الاستشهاد بها حكمة .

● وإليك مثالَيْن ، أولهما ما أورده ابن سعد في الطبقات الكبرى عن عمر ابن عبدالعزيز ﷺ ، فقال : « حدثنا مالك بن دينار قال : لما استُعمل عمر ابن عبدالعزيز على الناس قالت رِعَاءُ الشَّاءِ في رؤوس الجبال» مَنْ هذا العبد

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه ؛ ص ١٣٤ .

الصالح الذي قام على الناس؟ قيل لهم : وما علمكم بذاك؟ قالوا : إنه إذا قام على الناس خليفة عدل ، كَفَّت الذئاب عن شائنا»[1]. وقال أيضاً : «حدثني موسى ابن أعين ـ راع كان لمحمد ابن عيينة ـ قال : كنا نرعى الشَّاءَ بكرمان في خلافة عمر بن عبد العزيز ، فكانت الشاءُ والذئابُ والوحشُ ترعى في موضع واحد . فبينا نحن ذات ليلة إذْ عرض الذئب لشاة ، فقلنا : ما أرى الرجل الصالح إلا قد هلك . قال حماد : فحدثني هو أو غيره أنهم نظروا فوجدوه هلك في تلك الليلة»[2].

- هذه الأخبار كانت تجد القبول والإعجاب لدى الناس ، وربما ذرفوا الدمع حُزناً على الخليفة العادل العظيم الذي اختطفه الموت في ريعان شبابه ، والأمة أشد ما تكون سعادة به وبحكمه الذي أعاد أيام الخلافة الراشدة من جديد[3].

- لكن العقلية العلمية الحالية سوف تتساءل : إن مثل هذه المعجزة لم يقع في عهود أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ـ الخلفاء الراشدين ، فكيف يقع في عهد عمر ابن عبد العزيز ؟ وكفُّ الذئاب عن افتراس الأغنام معناه أن فطرتها التي فطرها الله عليها قد زالت كلية . وهذا مستحيل علمياً وعقلياً . ثم إن عودة فطرتها إليها لمجرد وفاة الخليفة العادل لا تقل استحالة عن ذهابها . إنها معجزة أخرى . ويتساءل الناس : كيف أمكن أن تعيش الذئاب دون افتراس؟ هل كانت تفترس الغزلان ـ مثلاً ـ ولا تفترس الغنم؟ هل كانت تتغذى على العُشب ؟ !

● فإذا استخدم الداعية المعاصر هذه الأخبار للتدليل على عدل عمر ابن عبدالعزيز ، لا أظن أن ذوي العقلية العلمية يتقبلونها ، والأرجح أن يفقد الداعية الكثير من مصداقيته لديهم . وعدل عمر بن عبدالعزيز لا يحتاج في الحقيقة لمثل هذه القصة . والأخبار الصحيحة العديدة في مصادر سيرته المشرقة تؤكد عدله كما تؤكد سائر الصفات النبيلة في شخصه العظيم رحمه الله .

---

(١) جـ ٥ ص ٤٦٤ (وشائنا يعني أغنامنا) .

(٢) نفسه ؛ ص ٤٦٥ .

(٣) مات عمر بن عبدالعزيز رحمه الله سنة ١٠١هـ وعمره ٣٩ سنة . (انظر الطبقات الكبرى ؛ جـ ٥ ص ٤٩١) .

● والعطف على اليتيم واجب أخلاقي راسخ يؤكده القرآن الكريم والسُّنة النبوية المطهرة . ولا يحتاج الداعية إلى رؤى أو معجزات لإقناع المدعوين به . لكن بعض الدعاة يحرص على إدهاش الناس وإثارة إعجابهم بقصص وأخبار إعْجازية . من ذلك ما ذكره ابن كثير رحمه الله عن : «بقرة كانت تجيء من ناحية باب الجابية (في دمشق) ، تقصد جراءً قد ماتت أمهم ، وهي في ناحية كنيسة مريم في خرابة ، فتجيء إليهم فتنسطح على شقها ، فترضع أولئك الجراء منها . وتكرر هذا (السلوك) مراراً . وأخبرني المحدِّث المفيد التقي نورالدين أحمد بن المقصوص بمشاهدته ذلك»[1] .

● في القرن الثامن الهجري كان بوسع الداعية أن يقص هذه القصة العجيبة ، فيصدِّقه الناس ، ويتأثرون بها . فإذا كانت البقرة ـ البهيمة ـ قد أحسَّت بمأساة الجراء الأيتام ، وتحركت لإرضاعهم وإنقاذهم من الموت ، فكيف يجب أن يكون إحساس المسلم الصالح إذا صادف أيتاماً ؟

– أما المسلم اليوم فسوف يبتسم حين يسمع القصة ، لكنه لن يصدقها .

– لا جدوى إذن من تلك الخزعبلات . والأرجح أن يفقد الداعية ثقة المخاطبين إذا قصَّها على أنها حقيقة واقعة ثابتة ، مستنداً إلى شهادة المحدِّث التقي نورالدين أحمد بن المقصوص ، وإثبات ابن كثير لها في كتابه الكبير! ولا تحتاج العقلية العلمية الحديثة إلى براهين لرفض هذه القصة وأمثالها .

● وأثبت ابن كثير قصصاً إعجازية أخرى من هذا القبيل ، منها قصة نَبَّاش القبور ، والزنبور والعصفور الأعمى ، وتجسُّد العمل السيئ في هيئة شبح أسود يدفن نفسه مع صاحبه[2] ! ولسنا بحاجة إلى مناقشتها ، لأن ما قلناه عن الذئاب التي تغيرت فطرتها ، والبقرة التي كانت تسافر يومياً لإرضاع الجراء الأيتام ، يصدق عليها .

---

(١) البداية والنهاية ؛ أخبار سنة ٧٩٢ ؛ جـ ١٤ ص ٢٩٩ .

(٢) نفسه ؛ جـ ١٣ ص ٣٤٦ .

- فالعقلية المسلمة الحديثة لا تصدِّق من المعجزات والخوارق إلا ما كان له سند من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ . لكن كثيراً من الدعاة يُظهرون غراماً شديداً بالأخبار والقصص الإعجازية التي لا سند لها من القرآن الكريم أو السنة الصحيحة . وبذلك يحفرون بينهم وبين المدعوين هُوة سحيقة لا يمكن عبُورها . ووراء هذه الأخطاء توجُّه عام بين الدعاة للاقتباس والنقل دون تمحيص . فما دام الخبر مذكوراً في كتاب تراثي ، فهو عندهم صحيح . وتعليمنا من الحضانة إلى الجامعة لا ينمِّي القدرة على النقد والتمييز ، في ضوء أصول الإسلام . وهذه القدرة مطلوبة اليوم لنجاح الدعاة في الأوساط العلمية . ولا بد لنا من تنميتها ، وممارستها ، لكي ننجو من طوفان الخرافات والخزعبلات المنتشرة لدى الدعاة ، ولدى الجماهير المسلمة ، والتي بلغت من الشناعة حداً لا يطاق .

● ويصادم بعض الدعاة الروح العلمية بأحاديث كثيرة عن السحر والسحرة . وهم يستندون في ذلك إلى أن القرآن ذَكَرَ السحر ووصف أعمال السحرة . وهم يأخذون السحر بمفهومه الخاطئ ، وينبذون المفهوم السديد له . يقول ابن حزم رحمه الله إن : «السحر حيلٌ وتخييل ، لا يُحِيلُ طبيعةً أصلاً . قال ﷻ ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ (طه:٦٦) [1] .

● ويقول الشاطبي رحمه الله إن أمور الفراسة والوحي النَّوْمِي : «لا يصح أن تُراعَى وتعتبر إلا بشرط : ألاَّ تخرم حكماً شرعياً ، ولا قاعدة دينية ، فإن ما يخرم قاعدة شرعية ، أو حكماً شرعياً ، ليس بحق في نفسه ، بل هو : إما خيال أو وَهْم ، وإما من إلقاء الشيطان»[2].

● وكثرة الكلام عن الأولياء وكراماتهم ، تشكك المخاطبين في نظام الكون وسنن الوجود المطردة التي خلقها الله تعالى وحفظها . وشعوبنا المسلمة بحاجة

---

(١) المحلى ؛ جـ١ ص٣٦ ، ٣٧ .

(٢) الموافقات ؛ جـ٢ ص ١٩٤ ـ المسألة الحادية عشرة .

إلى تنقية فكرها من الخرافات والخزعبلات التي تفسد عقائدها ، وتضر حياتها ، وتدفعها إلى السير وراء الدجالين والمحتالين ، وتصدق أن بأيديهم الشفاء من الأمراض ، والبراء من المشكلات ، فتقدم إليهم القرابين وتبذل إليهم الأموال ، وتحيطهم بهالات من الإكبار والتبجيل!

● وقد ميز شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بين : السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية ، كسنته تعالى في الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات ، فإن هذه السنن ينقضها إذا شاء بما شاءه من الحكم : كما حَبَسَ الشمس على يوشع ، وكما شق القمر لمحمد ﷺ»[1]. «وهذا بخلاف عادته التي وعد بها وأخبر أنها لا تتغير : لِنُصْرَة أوليائه ، وإهانة أعدائه ؛ فإن هذا عُلم بِخَبَرِهِ وحكمته»[2]. فوعود الله سُنن لا تُنقض .

- إذن ، القوانين أو السنن الطبيعية يمكن أن تُنقض بمشيئة الله تعالى ، وتلك هي المعجزات ؛ وأما سُنَن الله تعالى التي وعد بها عباده ، فهي قوانين مطردة لا تنقض ، ولا تتخلف ، لأن الله تعالى ﴿ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ (آل عمران:٩)

- لكن الحاصل الآن أن كثيراً من الدعاة ينسب القدرة على نقض قوانين الطبيعة لشيوخهم . حتى إحياء الموتى نُسب إلى أحد أقطاب الصوفية ! وتفشت هذه العادة بين الوعاظ والخطباء والمؤلفين الكبار ، للأسف الشديد! [3] فَصَحَّ أنها تخييلات لا حقيقة لها . ولو أحَالَ الساحرُ طبيعةً لكان لا فرق بينه وبين النبي ﷺ . وهذا كُفْر ممن أجازه»[4]. وهذا ما يصنعه السحرة اليوم ، وتشاهده الجماهير على شاشة التلفاز ؛ فالساحر يقطع بدن إنسان شطرين أمام النظارة ، ثم يظهر أنه لم يمسه

---

(١) جامع الرسائل ؛ المجموعة الأولى ؛ تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ؛ ط ١ سنة ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م ؛ ص ٥٢ .

(٢) نفسه ؛ ص ٥٣

(٣) راجع ـ مثلاً ـ كتاب : «السيد البدوي» لشيخ الأزهر الأسبق د . عبدالحليم محمود .

(٤) المحلى ؛ جـ١ ص ٣٦ ، ٣٧ .

بسوء . وهذا عمل مختلف عن معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ففي معجزة نبي الله إبراهيم عليه السلام تغيرت طبيعة النار ، فلم تحرقه . وفي معجزة نبي الله موسى عليه السلام ، أكَلَتِ العَصَا حَيَّاتِ السحرة ، فتغيرت طبيعتها من قطعة خشب إلى كائن إعجازي يبتلعُ الحبال التي بدت للناظرين على أنها حيات وثعابين !

● ومن المؤسف أن نجد في التراث العربي والإسلامي علماء أفذاذاً يصدقون أن في بلاد السودان والترك سحرة يستطيعون أن يتحكموا في السحاب لكي يمطر حيث يريدون ؛ وإن في السحرة :« مَنْ يشير إلى بطون الغنم . . في مراعيها بالبَعْجِ فإذا أمعاؤها ساقطة من بطونها إلى الأرض . وسمعنا أن بأرض الهند لهذا العهد من يشير إلى إنسان فَيَتَحَتَّتْ قلبُه ويقع ميتاً ، ويُنَقَّب عن قلبه فلا يوجد في حشاه»[1]. هذا كلام ابن خلدون ، مؤسس علم الاجتماع الحديث !

- وهناك علماء آخرون يذهبون إلى مثل ما ذهب إليه ابن خلدون أو قريباً منه[2]. واستناداً إلى هذه الآراء يتحدث كثير من الدعاة عن السحر والسحرة بالمفهوم الخاطئ . وكانت تلك الأقوال سنداً للدجالين الذين يستغلون مشكلات الجماهير الصحية والإنجابية ، والعاطفية ، في سلبهم أموالهم ، بزعم أنهم قادرون على حلِّها بالسحر .

● وبهذا تظهر صعوبة البراء من الاعتقاد الخاطئ في السحر ، وسَدِّ ثغرته في منهج الخطاب الديني المتطور . فنسأل الله العون والتوفيق لمعاهدنا وجامعاتنا في تطوير الخطاب الديني بالحكمة ، ووضع المناهج الدراسية لتخريج أجيال جديدة من الدعاة القادرين على جذب الجماهير المتعلمة إلى الإسلام كما هو على حقيقته الكاملة الشاملة المصونة في الكتاب والسُّنة .

---

(١) ابن خلدون ؛ المقدمة ؛ ص ٤٧٠ .

(٢) الطبري ؛ جامع البيان ؛ ص ٤٣٩ .

«لا أدري» : حكمة العلماء

● ومن تقاليدنا المنهجية الحكيمة أن على العالم إذا سئل عن مسألة لا يعرف جوابها أن يقول : «لا أدري» . وفي هذا يقول كبار الأئمة ، أحمد والشافعي ومالك وابن عجلان :« إذا أغفل العالم (لا أدري) أصيبت مَقَاتِلُه»[1]. وقد قال الإمام مالك «لا أدري» في ٣٦ مسألة من أربعين![2]

● والدعاة مُعَرَّضون لكثير من الأسئلة التي لا يعرفون لها جواباً . وقد يتوهم الداعية أن قول «لا أدري» ينال من مكانته العلمية ، فيحاول أن يجيب دون معرفة حقيقية وثيقة . والحق أن قول «لا أدري» حكمة ترفع من قدر الداعية ولا تخفضه . ولقد تصادف أن سمعت منذ سنوات شيخاً كبيراً سئل عن حكم نقل الأعضاء البشرية ، فأجاب دون روية بأنه حرام . وقد أثار بفتواه هذه معارضة بعض الباحثين . ثم عقد مؤتمر إسلامي بعد فترة وجيزة ، وتناول الموضوع بالبحث ، وانتهى إلى أن نقل الأعضاء البشرية حلال بشروط معينة تمنع الاتجار فيها . وهكذا واجه الشيخ حرجاً شديداً ولاذ بالصمت . وأخطر من الحرج للشيخ الاضطراب الذي أحدثته فتواه لدى كثير من المرضى ومن الأطباء أيضاً .

– فَلْيحذر الدعاة الذين يشاركون في برامج الفتوى ، وجلسات الحوار ، وحلقات العلم ، ومؤتمرات البحث ، من الغفلة عن هذه المقولة الحكيمة (لا أدري) ، ومن البواعث الزائفة ، ونزغات الكبر ، التي قد تزج بهم في «المقاتل!» حسب تعبير أئمة العلم الإسلامي الكبار ـ أولئك الذين مارسوا الحكمة المنهجية عشرات المرات ، وكان أحدهم يكرر (لا أدري) في الجلسة الواحدة غير مرة ، دون أن يشعر بالخجل أو الحرج . فكيف يجب أن يكون موقفنا نحن والفرق بيننا وبينهم كبير؟! والمدعوين اليوم غير المدعوين في الماضي والوسائل غير الوسائل . إننا بحاجة إلى تطوير منهج الحكمة في الدعوة لتحاشي تلك الأخطاء المهلكة .

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه ؛ ص ١٠٧ .

(٢) أبو زهرة ؛ أصول الفقه ؛ ص ٣٧٦- فقرة ٣٨٦ .

الارتباط بمشاغل الأمة

● ومن الحكمة أن يرتبط الخطاب الديني بمشاغل الأمة ارتباطاً وثيقاً . وتلك قاعدة دعوية مهمة ، ودقيقة . فالداعية المسلم : في كتاب يؤلفه ، أو مقال يكتبه ، أو محاضرة يلقيها ، يجب أن يرتبط بمشاغل أمته المسلمة لا ينفصل عنها ، وفي الوقت نفسه يجب ألاَّ يسمح للتوجهات السائدة أن تجرفه بعيداً عن مبادئ الإسلام ومقاصد شريعته العليا[1].

- ولقد خاضت أمتنا المسلمة حروباً عديدة ضد الصهاينة والمستعمرين ، وفي أثناء تلك الحروب وجدنا من يثير قضايا الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة ، وبين الأمويين والعباسيين ، وبين الشيعة والسنة ؛ والأمة في حاجة إلى الوحدة وتناسي خلافات الماضي ، في مواجهة عدو شرس تسانده قوى دولية متحدة ، عسكرياً ومالياً وثقافياً ودبلوماسياً . وسقطت رقاع واسعة من الأرض المسلمة في أيدي الأعداء في فلسطين وتركمانستان وكشمير والبوسنة . ويكتب أحد طلاب جامعاتنا رسالة عن الجزية ومقاديرها وقواعدها . وتنشغل إذاعاتنا وتلفازنا بقصص عالم المال ورجال الأعمال ومؤامراتهم وألاعيبهم ، ومسلسلات الحب والغرام وأفلام الجريمة والجنس والممثلات ولاعبي الكرة . ويمضي كثير من الخطباء في تزيين الزهد للجماهير الفقيرة المعدمة ، بقَصَصٍ ممل عن كبار الزهاد ، فيها من الزيف أضعاف ما فيها من الحقائق[2]. وليس في هذا شيء من الحكمة التي أمرنا الله تعالى بها .

● ومن جهة أخرى ، جَرَى كثير من الدعاة في مجالات الإعلام والآداب والفنون ، إثر التوجهات السائدة في المجتمع . وظهرت هذه الآفة بوضوح في أعقاب توقيع السادات معاهدة الصلح مع إسرائيل . فإذا فَتَحَت المذياع ، أو قرأت

---

(١) راجع الموضوع في الفصل الثامن من هذه الدراسة .

(٢) د . محمود محمد رسلان ؛ الخطابة ؛ ص ٧٤ ، ص ١٢٨ .

صحيفة (في بابها الديني) ، أو استمعْت إلى خطيب في مسجد ، وَجَدْتَ حديث «السلام» يتردد في كل الأبواق ، وعلى كل قلم ، ولسان! حتى أسماء المدن وشركات التجارة ، والمدارس الحكومية والأهلية ، أخذت اسم «السلام»! وأثبت بعض الدعاة أن السلام هو جوهر الإسلام ، وليس التوحيد ! وأثبتوا أن «التسامح» و«قبول الآخر اليهودي» هما قوام الأخلاق والقيم الإسلامية !! حدث هذا في مصر، في حين بقي الوضع على ما هو عليه في غيرها من دول المواجهة التي لم تعقد معاهدات سلام مع إسرائيل .

● قلة قليلة من الدعاة استطاعوا أن يصمدوا في وجه «عاصفة السلام» العاتية !

* * *